٨

التوحد في الحب

قال أبوه: يا بني هل لك أن تسلو بغير ليلى؟ فقال: واللّه ما أجد إلى السلوّ سبيلاً، وإني لفي أعظم الكرب والبلاء، وأنشأ يقول:

[الطويل]

وَكَمْ قائِلٍ لي: أُسْلُ عَنْهَا بِغَيْرِها
وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الوُشاةِ عَجيبُ (١)

فَقُلْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهِلُّ دُمُوعُها
وَقَلْبِي بِأَكْنَافِ الحَبيبِ يَذُوبُ (٢)

لَئِنْ كانَ لي قَلْبٌ يَذوبُ بِذِكْرِها
وَقَلْبٌ بِأُخْرَى، إِنَّها لَقُلُوبُ (٣)

فيا لَيْلَ جُودِي بِالوِصالِ فَإِنَّني
بِحُبَّيْكِ رَهْنٌ والفُؤادُ كَئِيبُ (٤)

لَعَلَّكِ أَنْ تُرْوَيْ بِشُرْبٍ على القَذَى
وَتَرْضَيْ بِأَخْلاقٍ لَهُنَّ خُطُوبُ (٥)

= بالخير العميم والغيث المنهمر ليعمّ الخير والخصب والغنى.

(١) يرى الشاعر الناصحين وشاة يودّون إبعاد الشاعر عن حبيبته باقتراحهم أن يستبدلها بأخرى علّه ينسى، ولكنه مصرّ على هذا الحبّ.

(٢) و (٣) الأكناف: الجوانب والنواحي. يردّ الشاعر مقُولة هؤلاء بأن له قلباً واحداً فقط، ولهذا فإنه يبكي لتعلقه بأرض من يحبّ وإذا ما ذكرها ذاب هياماً وعشقاً.

(٤) كئيب: حزين. يطلب الشاعر من حبيبته أن تتكرّم عليه بوصاله ولا تبخل، فإنه مرتهن إليها، مستعبد وقلبه يتألم ويحزن لما يعانيه من فراقها.

(٥) القذى: ما يؤذي العين ممّا يقع فيها من غبار فيؤلمها. يأمل الشاعر من حبيبته أن تجود وترضى بأن تروي من يشرب الضيم وترضى به صابراً على ما ينزل به من الويل.

وتُبْلي وِصالَ الواصِلينَ فتَعْلَمي
خَلائِقَ مَنْ يُصْفي الهَوى وَيَشُوبُ[١]
لقد شَفَّ هذا القلبَ أَنْ لَيْسَ بَارِحاً
لَهُ شَجَنٌ ما يُسْتَطاعُ قَريبُ[٢]
لَكِ اللَّهُ إِنِّي وَاصِلٌ ما وَصَلْتِني
ومُثْنٍ بما أَوْلَيْتِني وَمُثِيبُ[٣]
وَآخِذُ ما أَعْطَيْتِ عَفْواً وَإِنَّني
لأَزْوَرُ عَمَّا تَكْرَهِينَ هَيُوبُ[٤]
فلا تَتْرُكي نَفْسي شَعاعاً فإِنها
مِنَ الوَجْدِ قَدْ كادَتْ عَليكِ تَذُوبُ[٥]
وَأَلْقَى مِنَ الحُبِّ المُبَرِّحِ سَوْرَةً
لها بين جِلْدِي والعِظامِ دَبيبُ[٦]

(١) تبلي: تمتحني، يشوب: عكس يصفي. يدعو الشاعر حبيبته إلى اختباره لتكتشف مقدار حبه وصدقه لها فمن يرائي يبدي صدقاً، وهو في الحقيقة يخفي زيف غشّه وخداعه.
(٢) شفَّ: رقَّق. بارحاً: مفارقاً، شجن: حزن. يستعطف الشاعر حبيبته أنَّه خالص الودّ، باقٍ على حبّه رغم ما يلاقيه من ألم وحزن، ولن يتزحزح عن موقفه هذا.
(٣) يدعو لها اللَّه بالخير في رضاها ووصالها، فهو يشكر لها ذلك ويتمنّى لها كلّ خير وسعادة.
(٤) أزْوَرُ: أميل، هيوب: خائف. يأتمر الشاعر بأمر حبيبته؛ فما تقدّمه عن طيب خاطر يقبله برضًى وحبٍّ وما تكرهه يمتنع عن الاقتراب منه مخافة إغضابها وإثارة اشمئزازها.
(٥) ورد البيت في لسان العرب ٨: ١٨١ مادة «شعع» «. . . ونفس شعاع: متفرّقة قد تفرّقت هِمَمُها؛ . . . قال ابن بري: ومثل هذا لقيس بن معاذ مجنون بني عامر: . . .» الوجد شدّة الحبّ. يتوسّل الشاعر حبيبته ألّا تتركه مشتت المشاعر بين الأمل والرجاء والفشل والخوف، ونفسه يعمرها الحبّ لك.
(٦) الحبّ المبرّح: الحبّ الشديد المتوهج، سورة كلّ شيء: حدّته. يعلّل الشاعر سبب رجائه أنه ينزل به الألم الشديد والحزن جرّاء حبّه المخلص الذي دبّ في سائر جسده واستحوذ عليه.